الباب الثالث

محمد على والتعليم

obeikandl.com

obeikandl.com

المجال الثقافي(التربيه والتعليم):

كان محمد علي يعلم جيداً أن اصلاحاته لن يكتب لها نجاح إذا اعتمد على الخبراء الأجانب فقط وطالما بقي المجتمع المصري متخلف لا يتأثر بالتطورات من حوله فعلى اثر ذلك اهتم محمد علي بالتربيه والتعليم لبناء الشخصيه المصريه الحديثه لكي يقوم ببناء مصر على الطراز الحديث فقام محمد علي بادخال اصلاحات في مجال التربيه والتعليم أهمها :

١- ادخال الأفكار الأوروبيه والفكر الغربي إلى مصر مستعملاً طريقتين الأولى ارسال بعثات طلابيه إلى أوروبا والثانيه اقامة وانشاء مؤسسات تعليميه في مصر بإرشاد وإشراف أوروبي.

٢- انشاء مدارس للغات الأجنبيه خاصه الايطاليه والفرنسيه.

٣- قام بفتح مدارس لتقديم خدمات للجيش.

٤- أسس محمد علي عام ١٨٣٦ مدرسه للغات هدفها ترجمة المؤلفات الأوروبيه إلى العربية وقد ترأس هذه المدرسه رفاعه رفعة الطهطاوي الذي كان طالباً في إحدى بعثات الطلاب التي بعثها محمد علي إلى فرنسا فعاد إلى مصر متأثراً بالحضارة الغربية.

٥- قام بتنظيم التربيه والتعليم فأقام ديوان للمدارس لكي يشرف على أمور المدارس خاصه في المرحله الأبتدائية .

٦- أنشا أول مطبعة حكومية في مصر عام ١٨٢٢ كان لها دور كبير في اصدار الكتب.

٧- صدرت أول جريده رسميه في مصر عرفت باسم الوقائع المصريه.

بالرغم ن النواقص في الجهاز التربيه والتعليم الأ ان هذا الجهاز كان سبباً لاقامة جهاز تعليمي عصري وادخال التقنيه الأوروبيه في مصر كما أدت هذه المؤسسات إلى نهضه ثقافيه في مصر حيث تم ترجمة عشرات الكتب الأوروبيه إلى العربيه خاصه في مجالات الفلسفه والطب والفكر والتاريخ.

البعثات العلمية

في عام ١٨١٣، بعث محمد علي أول البعثات التعليمية إلى أوروبا، وكانت وجهتها إيطاليا، حيث أوفد عدد من الطلبة إلى ليفورنو وميلانو وفلورنسا وروما لدراسة العلوم العسكرية وطرق بناء السفن والهندسة والطباعة، ثم أتبعها ببعثات لفرنسا وإنجلترا كانت البعثات الأولى صغيرة، حيث كان جملة من بعث خلالها لا يتعدى ٢٨ طالبًا، ورغم ذلك فقد لمع منهم عثمان نور الدين الذي أصبح أميرالاي الأسطول المصري

ونقولا مسابكي الذي أسس مطبعة بولاق بأمر من محمد علي عام ١٨٢١

إلا أن العصر الذهبي لتلك البعثات، كان مع بعثة عام ١٨٢٦ التي تكونت من ٤٤ طالباً لدراسة العلوم العسكرية والادارية والطب والزراعة والتاريخ الطبيعي والمعادن والكيمياء والهيدروليكا وصب المعادن وصناعة الأسلحة والطباعة والعمارة والترجمة تبع تلك الحملة حملة ثانية عام ١٨٢٨إلى فرنسا، وثالثة عام ١٨٢٩ إلى فرنسا وإنجلترا والنمسا، ورابعة تخصصت في علوم الطب فقط عام ١٨٣٢ وشهد عام ١٨٤٤، أكبر تلك البعثات العلمية وأرسلت إلى فرنسا، وعرفت باسم بعثة الأنجال لأنها ضمت ٨٣ طالبًا بينهم اثنين من أبناء محمد علي واثنين من أحفاده كان إجمالي عدد تلك البعثات تسع بعثات، ضمت ٣١٩ طالبًا وبلغ إجمالي ما أنفق عليهم ٣٠٣,٣٦٠ جنيه كما أمر محمد علي بتوجيه ثلاث حملات بقيادة البكباشي سليم القبطان أعوام ١٨٣٩، ١٨٤٠، و١٨٤١ لاستكشاف منابع النيل كان لتلك الحملات الفضل الكبير في استكشاف تلك المناطق ومعرفة أحوالها.

المدارس العليا

أنشأ العديد من الكليات وكانت يطلق عليها آنذاك المدارس العليا، بدأها عام ١٨١٦، بمدرسة للهندسة بالقلعة لتخريج مهندسين يتعهدون

بأعمال العمران وفي عام ١٨٢٧، أنشأ مدرسة الطب في أبي زعبل بنصيحة من كلوت بك للوفاء باحتياجات الجيش من الأطباء، ومع الوقت خدم هؤلاء الأطباء عامة الشعب، ثم ألحق بها مدرسة للصيدلة، وأخرى للقابلات (الولادة) عام ١٨٢٩ ثم أنشأت مدرسة المهندسخانة في بولاق للهندسة العسكرية، ومدرسة المعادن في مصر القديمة عام ١٨٣٤، ومدرسة الألسن في الأزبكية عام ١٨٣٦، ومدرسة الزراعة بنبروه عام ومدرسة المحاسبة في السيدة زينب عام ١٨٣٧، ومدرسة الطب البيطري في رشيد ومدرسة الفنون والصنائع عام ١٨٣٩،[١١٩] وقد بلغ مجموع طلاب المدارس العليا نحو ٤,٥٠٠ طالب.

المدارس الابتدائية

لما تقدمت المدارس العليا واتسع نطاقها، قرر محمد علي إنشاء ديوان المدارس عام ١٨٣٧، وعهد بإدارته إلى بعض أعضاء البعثات العائدين لمصر، لتنظيم التعليم بالمدارس قرر هذا الديوان توسيع قاعدة التعليم في مصر، فوضع لائحة لنشر التعليم الابتدائي، نصت على ضرورة إنشاء ٥٠ مدرسة ابتدائية، وهو ما وافق عليه محمد علي، وأمر بإنشائها على أن يكون ٤ منها بالقاهرة وواحدة بالأسكندرية تضم كل منها ٢٠٠ تلميذ، والباقي توزع على مختلف الأقاليم وتضم كل منها ١٠٠ تلميذ

تغريب التعليم

لقد أدركت الدول الغربية والأستعمارية منذ زمن طويل: أهمية التعليم بالنسبة للفرد، وأثره العميق على نهضة المجتمع؛ فنال حظًا عظيماً من اهتمامهم داخلياً وخارجياً، وصار سلاحاً ذا حدين؛ حيث استُثمر لتنمية المجتمعات الغربية ونهضتها والأرتقاء بالفرد والجماعة فيها من جانب، وصار حربة مصوبة إلى خاصرة الدول الاسلامية المحتلة تدمِّر فيها الأفراد والجماعات وتزيِّف التاريخ وتشوهه من جانب آخر، مستعيضة بذلك عن الأحتلال العسكري، الذي أثبت عدم جدواه في كثير من البقاع؛ فالمحتل العسكري لم يزل مكروهاً، بل ويبذل المجاهدون نفوسهم رخيصة في سبيل طرده من بلادهم، وتظل سلوكيات أفراده وأفكارهم منبوذة ومحل نقد مستمر؛ لذلك استعاض المحتل بالغزو الفكري وأساليب التغريب التي قد ينطق بها وينشرها أناس يحملون لون البشرة ذاته، ويتكلمون باللسان العربي المبين؛ لكنهم يحملون عقلاً وفكرًا مخترقًا.

وبإلقاء نظرة سريعة على واقع الدول الاسلامية في اللحظة الحالية يتبين أن المستعمر الأجنبي نجح في تحقيق أهدافه، بمسخ الهوية العربية والاسلامية للدول المحتلة فكرياً التي صارت تسير في ركب التغريب والعلمنة ونبذ الدين والهوية العربية والاسلامية، ولا شك أن

التعليم كان خط الهجوم الأول للمحتل الذي نفذ من خلاله إلى ضمير أفراد المجتمع وضربه في الصميم.

وسنتتبع أهم محطات التغريب في المجتمعات الاسلامية، بدءاً من المحاولات الأولى لأعداء الأمة؛ لنشر بذور العلمنة والتغريب، وانتهاءً بالصورة القاتمة التي وصلت إليها أمتنا، راجين أن تستفيد الأمة من ماضيها انطلاقًا إلى مستقبل أفضل.

بداية الانحدار:

بدأت هجمة التغريب الشرسة على نظام التعليم في العالم العربي الاسلامي في بداية القرن التاسع عشر، منذ تأسيس الدولة الحديثة في مصر في عهد محمد علي، والتي بدأها بسياسة الابتعاث التي اتبعها؛ بإرسال الطلاب الشبان غير المحصنين للتعلم في أوروبا التي كانت موطناً للفتن والشهوات ، وكان هذا أخطر ما فعله في الحقيقة؛ لأنه من هناك بدأ الخط العلماني يدخل ساحة التعليم، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الاسلامية ومن ورائها إلى بقية أركان الوطن العربي.

لقد اجتهد محمد علي فى إنشاء المدارس المدنية مما يعدّه البعض نهضة في التعليم المدني إلا أن ذلك كان على حساب التعليم الديني والأزهري، فقد بلغ عدد المدارس الابتدائية التي أنشأها محمد علي ستة

وستين مدرسة؛ منها أربعون بالوجه البحري، وست وعشرون مدرسة في الوجه القبلي، أما المدارس التخصصية أو العالية: فشملت مدارس للطب والهندسة والطب البيطري والزراعة واللغات ومدارس حربية للطوبجية والخيالة والبيادة، هذا إلى جانب مدارس للموسيقى والفنون والصناعات، وكان بالقطر المصري نحو عشرة آلاف تلميذ ينتظمون في هذه المدارس

وقد أوجد هذا التعليم المدني ازدواج في الثقافة والفكر في مصر، خاصة أن محمد علي اختص خريجي المدارس الحديثة بالوظائف الحكومية والمناصب الرفيعة، في حين اقتصر دور خريجي الأزهر على وظائف التعليم التي صار ينظر إليها نظرة دونية، ولا تكفل لصاحبها ما تكفله الوظائف الحكومية من دخل.

وللقارئ أن يتخيل كل هذا الأهتمام الذي أولاه محمد علي للتعليم المدني الذي كان أغلب المدرسين فيه أجانب فرنسيين وايطاليين، في الوقت الذي كان الأزهر فيه يعاني من الأهمال، بل عمد محمد علي وأبناؤه من بعده إلى التقييد والتهميش المتعمد لدور الأزهر عن الحياة التعليمية والسياسية إلى أقصى حد؛ وذلك النهج تلخصه كلمة الخديوي عباس حلمي التي قال فيها محدداً دور الأزهر: أول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر والشغب بعيداً عنه، فلا

يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار؛ لأنه مدرسة دينية قبل كل شيء إن كل ما يهم الحكومة من الأزهر استتباب الأمن فيه وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب، وأن تحثوا إخوانكم العلماء وكذلك الطلبة على ذلك مهدداً من يحاول بث الشغب بالأقوال أو بواسطة الجرائد والأخذ والرد فيها بالابعاد عن الأزهر.

هكذا أرادت أسرة محمد علي أن يشتغل العلماء الذين هم عصب الأمة ومحركو دفتها: بتلقي العلوم الدينية النافعة وفقط، أما من تسول له نفسه أن يحيد عن ذلك النهج؛ فالابعاد عن الأزهر مصيره المحتوم.

هكذا كان حال الأزهر، ولو كان في مكان محمد علي: قائد مسلم يبتغي أن ينهض بمصر على أسس إسلامية وقاعدة إسلامية فقد كان أمامه سبيل آخر أكثر نفعاً، هو النهوض بالأزهر معقل العلم لا لمصر وحدها، بل للعالم الاسلامي كله بردِّه إلى الصورة الزاهية التي كانت عليها المعاهد الاسلامية في عصور النهضة، حيث كانت تعلّم العلوم الشرعية والدنيوية معاً، وكان يتخرج فيها الأطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفيزيائيون والكيمائيون المسلمون الذين علّموا العلم لأوروبا في عصور الظلام الدامس التي كانت تعيشها.

فإذا كانت بلاده أو بلاد العالم الاسلامي جمعاء تفتقر إلى المتخصصين في هذه العلوم، الذين يحتاج إليهم الأزهر لينهض بمهمته، ففي وسعه يومئذ أن يرسل أفراداً بأعيانهم، يختارون اختياراً دقيقًا، على أساس دينهم وتقواهم، وحصافتهم ورزانتهم، بعد أن يكونوا قد تجاوزوا سن الفتنة،وأحصنوا بالزواج فلا ينزلقون في مزالق الفساد الخلقي؛ فيتخصصون في مختلف العلوم ويعودون ليدرسوا للطلاب في بيئتهم الاسلامية، فيظل الشباب محافظاً على إسلامه، ويتزود من العلوم بما ينفض عنه تخلفه العلمي، ويعيد إليه الحاسّة العلمية التي فقدها المسلمون خلال عصر التخلف الطويل.

ولكن الهدف الأساسي الذي رنا إليه محمد علي من خلال هذه السياسة هوجعل مصر قطعة من أوروبا، كما كان يقول ولده إسماعيل من بعده، بغض النظر عما قد ينطوي عليه ذلك من تبديل للقيم الأخلاقية التي كانت تميز المجتمعات الاسلامية عن غيرها، وهو ما صار بالفعل عندما عادت البعثات مفتونة وبغير الوجه الذي ذهبت به؛ وكانت وجهتهم الأولى التي أيقنوا بحدوث التغيير من خلالها هي تغريب التعليم.

لقد بلغ عدد من أرسلهم محمد علي باشا إلى أوروبا في زمنه ٣١٩ طالبًا، وبعد عودتهم تولى هؤلاء التلاميذ الوظائف الهامة في المجتمع، وتمكنوا من أن يقوموا بتغيير وجه المجتمع المصري على كافة الأصعدة

وميادين الحياة، كما ساهموا في تغيير بنية المجتمع العقدية والفكرية هم وتلامذتهم الذين جاءوا من بعدهم، تماماً كما أراد محمد علي باشا ومستشاروه ولا أدقّ مما صوره اللورد كرومر عن الاختراق الفكري لمثل هذه البعثات حينما قال: إن الشبان الذين يتلقون علومهم في إنجلترا وأوروبا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم، ولا يستطيعون الأنتماء في نفس الوقت إلى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ممزقين.

وهذا بالفعل ما حدث في أفراد البعثات التي أرسلها محمد علي لأوروبا، ونستطيع أن نلمس ذلك جليًا من خلال قراءة بعض الصفحات من كتاب الشيخ رفاعة الطهطاوي: تخليص الابريز في تلخيص باريز الذي ألّفه بعد عودته من فرنسا، وامتدح فيه الحياة الفرنسية بكل مفرداتها من طرق التفكير والتعليم والتعامل بين الأفراد، حتى عادات الطعام والشراب، وطريقة وضع الأطباق والأكل بالشوكة والسكين، الأمر الذي يكشف عن مدى التقزم الذي شعر به الطهطاوي عندما وطئت قدماه هذه البلاد.

لقد عاد رفاعة الطهطاوي العالم الأزهري الذي كان يفترض فيه أن يكون إماماً لبعثة محمد علي، وواعظًا لأفرادها وهادياً لهم من الوقوع في زلل الشهوات في فرنسا عاد بعقل مخترق، حيث دعا في كتابه

المرشد الأمين في تربية البنات والبنين إلى خروج المرأة للتعليم دون وضع ضوابط لهذا الخروج، بالاضافة إلى وضع البذرة الأولى لعمل المرأة، بذريعة أن التعليم يمكّنها عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء هكذا زعم.

إن أخطر ما قدّمه محمد علي لمصر في هذه الفترة: أنه وضع البذرة الأولى لمثل هذا النوع من التعليم التغريبي الذي أخذت تؤتي أكلها في عصر إسماعيل، فروى تربتها رفاعة الطهطاوي في كثير من الوصب والجهد، ثم جاء علي مبارك فنماها وأوصل جذورها فأينعت وأثمرت، وشهد تباشير الطهطاوي في أخريات أيامه عندما تهيأت العقول لتقبل مثل هذه التحركات.

القس دانلوب :

تسارعت الأحداث فيما بعد، وقدم الأحتلال البريطاني إلى مصر؛ وقام اللورد كرومر بتعيين القسيس المنصِّر دوجلاس دانلوب في منصب مستشار لوزارة المعارف المصرية وزارة التعليم، الذي كان يتحكم في السلطة الفعلية الكاملة فى الوزارة.

ولنا أن نتوقع ما الذي تصير إليه أمور وزارة المعارف في بلد إسلامي؛ عندما يكون على رأسه أحد المنصرين وقساوسة الدولة المحتلة؛ لقد استطاع دانلوب أن يرسم سياسة تعليم على وفق الهوى الغربي النصراني (المسيحي)، فكان أن وُضعت مناهج تقطع الصلة بين الأمة الاسلامية ودينها التليد، فتم تشويه التاريخ الاسلامي، وأهملت دراسة الدين الا في أضيق الحدود، وتم إعادة تعريف الاسلام على أنه الدين الذي أتى لهدم عبادة الأصنام التي عُظمت في الجاهلية، ولتحريم وأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وغارات السلب والنهب وفقط ، وقد انتهى دوره بقضائه على هذه الأشياء.

وقد اعتمد دانلوب في سياسته لتطوير التعليم وتغريبه: على سياسة المثل الأنجليزي المشهور بطيء لكنه أكيد المفعول، وسدد ضربات قاتلة إلى التعليم الأزهري،الذي كان عصب التعليم المصري في ذلك الوقت، ويعود خبث خطة دانلوب إلى تركه للأزهر على ما هو عليه من الحالة المتردية، ودعم المدارس المدنية غير الدينية التي لا تعلِّم الدين ولا تضعه في خطتها الأ تُتفًا قليلة، وأسند الوظائف العليا والمناصب الرفيعة والمكانة الاجتماعية للمتخرجين من هذه المدارس، ففي الوقت الذي لا يجد فيه خريج المدارس والمعاهد الأزهرية الذي انتظم في سلك الدراسة عشرين سنة أو أكثر وظيفة الا بشق الأنفس، وإن وجدها فهي براتب

زهيد لا يكفيه طعاماً وشرابًا فقط هو وأسرته، في الوقت نفسه: يُعيَّن خريج تلك المدارس المدنية في الدواوين والوزارات الحكومية بعد أربع سنوات فقط من الدراسة، ويتحصل على راتب يمثل ثروة ضخمة يحيا بها حياة كريمة في العاصمة القاهرة، ويتزوج ويبقى لديه فائض يشتري به الأملاك والأطيان. في الوقت الذي لا يعيش فيه خريج الأزهر الا كفافًا، أو عالة، يسأل الناس أعطوه أو حرموه.

ولا شك أن هذا وضعاً مترديًا لخريجي الأزهر! كان كفيلاً بتوجه الناس عنه، وعن التعليم الديني بشكل عام إلى مثل تلك المدارس المدنية التي تكفل لصاحبها تلك المكانة المرموقة بين أبناء المجتمع، الذي صار ينظر إلى الثروة والمكانة على أنها كل شيء.

ومن أبرز أعمال دانلوب في دفع عجلة التغريب بمصر:

أنه عمل على محاربة اللغة العربية والاسلام والأزهر، ومن ذلك: اضطهاده لمعلمي اللغة العربية من الأزهريين، وبإزاء ذلك: نشر لواء اللغة الانجليزية وأهلها؛ للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم، وبذلك أمكنه القضاء على نفوذ اللغة العربية.

ولقد مضى في ذلك إلى حد أنّه جعل تعليم سائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والكيمياء والجغرافيا والرسم باللغة الانجليزية، وضيّق على اللغة العربية تضييقًا كبيرًا.

وشرع في نزع اعتقاد الشباب المسلم في القرآن، وكان مذهبه كما كان يقول: متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة.

كان دانلوب يسافر كل صيف إلى بريطانيا، ثم يعود في أول العام الدراسي بعدد كبير من المعلمين الانجليز حملة الشهادات الأهلية، وكانت أبرز كتابات هؤلاء المدرسين تبث الكراهية للغة العربية، وتحطيم آمال الأمة العربية وتغريب التلاميذ واتهام تاريخ العرب والمسلمين وإثارة الشكوك حوله، واتهام الحضارة الاسلامية العربية باتهامات مختلفة، لخلق شعور عام بكراهية هذه الأمجاد والنفور منها والسخرية بها، وكانوا يطعنون روح الوطنية في الشباب؛ للقضاء على حماستهم وتهديدهم.

وكانوا يصفون الأمة بأنّها نصف متحضرة، واضطهدوا كل شاب أظهر ميلاً أو عاطفة نحو دين أو وطن فيما كان محرماً على كل أستاذ مصري أن يتحدث عن تاريخ مصر أو تاريخ الاسلام.

كما شجع دانلوب انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير في نفس اتجاه التغريب الاستعماري، وهمَّ بتحطيم كيان الأمة وإفساد معنوياتها.

وعلى الرغم من إقصاء دانلوب وتعيين سعد زغلول وزيرًا للمعارف تحت ضغط الرأي العام على اللورد كرومر، ظلت السلطة الفعلية في يد دانلوب؛ حيث كانت تعتمد من قِبل الوزارة تلك الخطط التي يدبرها مع نظار المدارس، وكبار الموظفين بعد الاتصال به شخصيًا وتلقي أوامره وتعليماته قبل أن يكتبوا تقاريرهم الرسمية، وهو ما حدا بإدوارد لامبير ناظر مدرسة الحقوق أن يقول في تقريره: إنّ الموظف القابض على الادارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دانلوب.

وقد أبطل دانلوب عددًا من الكتب المقررة لأنّها تتحدث عن القيم العربية الاسلامية؛ حيث كانت غير موافقة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية؛ وذلك بإيرادها قواعد الاسلام وأركانه، مصحوبة بالحكم والآيات والأحاديث التي تحث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين وفي سبيل شجب هذه الكتب أعلن دانلوب أنّ مثل هذه الكتب غير موافية لحاجات التعليم، وأوعز إلى بعض المدرسين الموالين له: بأن يضعوا كتبًا بديلة لها، تضم بعض خرافات لافونتين في عبارة سقيمة وأسلوب مبتذل.

وقد ناضل الشيخ حمزة فتح الله في سبيل إحباط رأيه؛ فأعلن دانلوب أنّ كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ما له مساس بالدين هكذا زعم.

اللغة العربية والهجمة على القرآن:

اللغة العربية لغة الوحي والتشريع الاسلامي، ويعد استهدافها استهدافاً للإسلام في حد ذاته، ولقد عمد الاحتلال أثناء محاولاته لتقويض دور الأزهر وهدم أركانه إلى عدة محاولات تستهدف اللغة العربية؛ لقتلها والقضاء عليها، ومن ثم يسهل القضاء على الهوية الاسلامية والعربية في نفوس المسلمين.

ففي عهد دانلوب كان الراتب الذي يتقاضاه مدرسو جميع المواد من أرباب المؤهلات العليا: اثني عشر جنيهاً، في حين أن مدرس اللغة العربية كان لا يحصل سوى على أربعة جنيهات شهرياً، فكانت حياته بين العوز والفاقة والتردد على الأبواب.

وهكذا كانت تتشكل نظرة مدرس اللغة العربية إلى نفسه في المجتمع، فهو أقل الناس شأناً فيه، إلى الحد الذي يصل إلى أن فرّاش المدرسة التي يعمل بها المدرس قد يكون أعلى راتباً منه إذا كان ذا أقدميه في العمل بعض الشيء.

ونظراً لذلك لم تعد لمدرس اللغة العربية كلمة مسموعة في مدرسته، فلا يستشار في شئونها، ولا يشارك في أي قرار من القرارات التي تصدرها الادارة، بالاضافة إلى ما كان يفرضه ذلك الراتب عليه من سوء المنظر وكآبة الهيئة! وما كان يلبسه من الثياب الرثة البالية التي لم تكن تكفل له أي احترام بين الطلاب، في الوقت الذي يتمتع فيه مدرس اللغة الانجليزية الذي يكون في الغالب إنجليزياً برائحة عطرة وزي منمق، وربطة عنق أنيقة تفرض عليه احترام الناس، فضلاً عن حياته المعيشية المرفهة التي لا يتكفف فيها الناس، بل يفيض من راتبه شهرياً؛ ليكون فيما بعد من أرباب الأملاك.

وهكذا ينحدر وضع مدرس اللغة العربية في المجتمع، بقدر ما ينحدر راتبه، ويصبح مادة دائمة للسخرية والتندر، يتحدث الناس عن جهله، وتخلفه، وضيق أفقه، وفقره، وانحطاط مستواه الأجتماعي والفكري. وأشد ما يعاب عليه، ويُزدرى من أجله، أنه لا يعرف لغة أجنبية.

وقد ساعدت أفلام السينما التي أنتجت في هذه الفترة في ترسيخ هذه الصورة في أذهان الناس إلى حد بعيد، حتى صارت السخرية من هيئته وشكله وطريقة نطقه لحروف اللغة العربية أو الأجنبية نمطاً من أنماط شخصيته، لم تكتف أفلام تلك الفترة بالسخرية من المدرس فقط؛ بل ومن مفردات اللغة نفسها، حتى صار التحدث باللغة الفصحى: من أساليب

الضحك والفكاهة داخل المجتمع، تزامن ذلك مع موجة الدعوة إلى العامية التي دعا إليها بعض المتغربين الذين تم تلميعهم من أمثال سلامة موسى ولويس عوض.

وحين يصبح مدرس اللغة العربية في هذا الوضع المهين الذي لا يبعث على الاحترام، فوضعه يؤثر حتماً على المادة التي يدرسها وقد كان هذا هو الهدف المقصود من وراء ذلك التدبير الخبيث؛ حيث صارت اللغة العربية موضع ازدراء وتحقير ونفور؛ فالطلاب يشكون من صعوبتها وقد ظلوا يعايشونها ثلاثة عشر قرناً قبل ذلك بلا شكوى.

وبدأت اللغة الانجليزية في الانتشار في المجتمع نطقًا وكتابة، فكُتبت واجهات المحال التجارية الكبرى والمؤسسات الاقتصادية باللغة الانجليزية ، واستُخدمت الانجليزية في تعلم الآداب والفنون، فصارت أسماءٌ كامرؤ القيس والبحتري وأبي تمام أسماءً ممجوجة ينفر منها القارئ والمثقف، ويعدها مثالاً للرجعية والتخلف، بينما أمثال شكسبير ودانتى وودزورث وبايرون وأندريه جيد وفيكتور هوجو من الأدباء الانجليز والغربيين هي التي تتردد على ألسنة المثقفين؛ للتدليل على أنهم مثقفون حتى وإن لم يكن لهم بها علم إلا من خلال ترديد أسمائهم.

بالاضافة إلى ما أسند إلى درس اللغة العربية من قضايا لا تكاد تلامس الواقع الذي يعيشه أبناؤها، حيث كان درس النصوص مثلاً ولا يزال من

أصعب الدروس التي يحتويها كتاب اللغة العربية، فلا الطلاب استفادوا منه بالقدر الكافي لغةً وذوقًا ورفعاً لمستواهم اللغوي، ولا هم أحبوه فارتبطوا باللغة العربية التي يدرسونها من أجله.

التربية الاسلامية:

ما قيل عن اللغة العربية يكاد ينطبق انطباقًا كلياً على درس التربية الدينية الاسلامية، بل إن حاله أسوأ من ذلك بكثير، فبالاضافة إلى كل ما قيل عن مدرس اللغة العربية فمدرس التربية الاسلامية يزيد على ذلك بأن تدريس المادة يوكل إلى أكبر المعلمين سناً، والذي قد يكون مريضاً في الغالب، حيث هو مصاب بالهزال، منحني الظهر، يكثر سعاله بين الحين والآخر، بالاضافة إلى هيئته الرثة وثيابه القديمة البالية التي فرضها عليه مستواه الاقتصادي.

وتسند إليه مهمة تدريس التربية الاسلامية بحجة إراحته من هم التصحيح وحمل دفاتر التلاميذ إلى البيت بسبب كبر سنه بالاضافة إلى العمد بحصة التربية الاسلامية إلى أن تكون في نهاية اليوم الدراسي؛ بسبب قلة الأهتمام بها، حيث تكون في الغالب السابعة يوم السبت أو الخامسة يوم الخميس أو السادسة في بقية الأيام، فبعد أن تنتهي طاقة التلاميذ طوال اليوم في تعلم بقية العلوم والتي منها الفسحة والألعاب والموسيقى يأتي درس الدين وهم منهكون متعبون وقد خارت قواهم،

فيأتي درس التربية الاسلامية تحصيل حاصل، مجرد أداء من المعلم صاحب الهيئة المنقرة التي لا يطيق التلاميذ النظر إليه، فيستمعون الدرس وأجفانهم نصف مغلقة وعقولهم شبه نائمة.

وقد وصل حال هذه المادة في الوقت الحاضر إلى أن صارت مجرد نصائح وتعاليم يسقطها المعلم أي معلم في عقول التلاميذ، ولا يشترط في تدريس هذه المادة أن يكون المعلم متخصصاً، بل يقوم معلم اللغة العربية أو غيره بهذا الدور مكتفياً بما درسه في كلية الأداب أو التربية من جرعات قليلة عن هذا المادة، بعيدًا عن سلوكه الشخصي الذي قد يكون مغايراً تماماً لما يقوم بتدريسه.

ويذكر أحد أولياء الأمور في هذا الشأن أن فصل ولده في الثانوية العامة ظل بلا مدرس لمادة التربية الاسلامية طيلة الفصل الأول إلى أن قربت امتحانات نصف العام، فما كان من إدارة المدرسة الا أن أوكلت المهمة إلى أحد مدرسي التاريخ ممن لهم ميول صوفية إلى تدريس هذه المادة، وعند شرحه لأحد الدروس التي كانت تتناول قضية التدخين وأثرها السلبي على المجتمع لم تكن السيجارة تفارق يده.

فضلاً عن أن هذه المادة لا تعد مادة للرسوب والنجاح في أي مرحلة من مراحل التعليم الثلاثة، بل لا تضاف درجاتها إلى المجموع، في الوقت الذي تعد مادة كالرسم مثلاً مادة معتبرة في الرسوب والنجاح، وتضاف

درجاتها إلى مجموع الدرجات الكلي للطالب من أجل ذلك انتشر في الأيام الأخيرة تلقي الدروس الخصوصية في مادتي الرسم والموسيقى في الوقت الذي لم يُسمع أبداً بدرس خصوصي في مادة التربية الاسلامية لأنها مادة مهمَلة.

وفي المرحلة الجامعية فإن الأمر أسوأ من ذلك؛ حيث لا وجود للتربية الاسلامية أو أي من مواضيعها أو أطروحاتها في أي كلية الا الكليات الدينية المتخصصة، مثل كليات جامعة الأزهر، وجرعات مخفضة في بعض الأقسام من كليات الآداب والتربية، أما بقية الكليات فتنتهي صلة طلابها بدراسة الدين في المرحلة الثانوية.

وهذا لا شك له وقع كبير في انتشار العلاقات المحرمة بين الطلبة والطالبات في الجامعات التي تشكو منها مصر؛ حيث بلغت مثلاً حالات الزواج العرفي داخل الجامعات مبلغاً خطيراً؛ حيث كشفت إحصائية نشرت عام ٢٠٠٧ م عن وزارة التضامن الأجتماعي أن عدد حالات الزواج العرفي التي أمكن حصرها بين الطلاب والطالبات في مختلف الجامعات المصرية بلغت نحو ١٣٠ ألف حالة وقد نتج عن هذه الزيجات وفقًا للإحصائية نحو ١٤ ألف طفل من مجهولي النسب يشكلون قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة، مسببة مشكلات لا حل لها في غياب الوازع الديني.

كانت هذه هي صورة درس التربية الاسلامية في مدارس دانلوب والمدارس الحديثة، وعلى العكس من ذلك كان درس الدين في المدارس المسيحية التنصيرية؛ حيث كان مختلفًا تمام الاختلاف عن تلك الصورة المزرية المنفّرة؛ حيث يقام في الصباح الباكر،والتلاميذ قادمون بنشاطهم كله، ويقوم بتدريسه أكثر المدرسين والمدرسات شباباً وأحبهم إلى قلوب التلاميذ! ولا يقام في فصل الدراسة حتى لا تكون له رتابة الدروس اليومية العادية، إنما يقام في كنيسة المدرسة! ويقام في وسط الأناشيد التي تتجاوب بها حناجر التلاميذ وقلوبهم، فيقترن درس الدين في نفوسهم بالفرحة والبهجة والنشاط والحركة والاستبشار بالحياة! والعجيب في الأمر أن هذه المدارس كانت تحظى بانتظام بعض الطلاب المسلمين بها على الرغم من إعلانها أنها مدارس مسيحية تنصيرية.

تغريب المعلم خطوة لتغريب التعليم

كانت مدرسة المعلمين العليا التي يتخرج فيها المعلمون بمدارس دانلوب، تكمل الضلع الناقص في منظومة التغريب التي انتهجها الاحتلال في مصر؛ لتكون أسوة بعد ذلك لبقية العالم الاسلامي، كيف لا وهي بلد الأزهر الشريف؟! وقبلة المتعلمين والدارسين من جميع أنحاء العالم؟! من أجل ذلك كانت هذه المدرسة هي معمل التفريخ الذي أنجب المعلمين الذين يغذون المخطط بأكمله.

كان طلاب المدرسة يختارون بادئ ذي بدء من بين خريجي المدارس الثانوية الذين حقنوا بالسم الخبيث على جرعتين متواليتين طويلتين، إحداهما أثناء التعليم الابتدائي، والثانية أثناء التعليم الثانوي أي خلال تسع سنوات متواليات.

والثانية: وكانوا يختارون على أسس معينة وضعها وينفذها مدير المدرسة ومعلموها وكلهم من الانجليز! ولنا أن تتوقع نوع العينة المطلوبة! ونوع المؤهلات المطلوبة! وبطبيعة الحال لن تكون الاستقامة على الاسلام، ولا التقوى والصلاح من بين تلك المؤهلات! وأياً كانت نوعية الداخل ووقت دخوله، فالخارج مضمون! والنتيجة مضمونة.

كان الأساتذة الأنجليز لا يدخلون على طلابهم في الحقيقة بوصفهم أساتذة فحسب، بل بوصفهم قوة الاحتلال القاهرة التي جاءت لتقهر نفوس هؤلاء الطلاب وتشعرهم بالضآلة والدونية إزاء الرجل الأبيض العظيم الذي وضعته العناية الألهية على رأس هذه البلاد، وهذا هو المعنى الظاهر الذي كان يتعمد أولئك الأساتذة إظهاره أما المعنى الخفي وهو القهر الصليبي للمسلمين فهذا لم يكونوا يصرحون به، لكنه ينبث واضحاً في كل مناسبة وفي كل توجيه.

كانت الرسالة الكبرى التي كلف المدرسون الانجليز ببثها في نفوس الطلبة معلمي المستقبل أن ما بكم من تخلف سببه الاسلام! الدين كله

يسبب التخلف، ولكن الاسلام بصفة خاصة يعمل على التخلف أكثر من أي دين!! ستظلون متأخرين ما بقيتم متمسكين بالاسلام! لن تتقدموا الا إذا تخلصتم من عقلية القرون الوسطى التي كانت تعتبر الدين أساس الحياة.

لقد عمق هؤلاء المدرسون الانجليز في عقول الطلبة فكرة أن أوروبا كانت في العصور الوسطى المظلمة خاضعة لسلطان الدين، فكانت جاهلة متأخرة جامدة، وحين نبذت الدين تقدمت وتحضرت وتعلمت وأوتيت كل وسائل القوة والتمكن، كان الدين حاجزاً عن العلم لأنه مجموعة من الخرافات، وحاجزاً عن العمل والنشاط والانتاج لأنه ينظر إلى الآخرة، ويهمل الدنيا، لذلك كان لابد من تحطيمه للقضاء على الخرافة.

لقد كانت هذه المحاولات هي أقسى محاولات العلمنة والغزو الفكري في المجتمع المصري آنذاك، فما كان الطلاب يومئذ يملكون الرد على تحدي المعلم الأبيض، وما كانوا يملكون في هزيمتهم الداخلية المبهورة بما عند الغرب، ورهبتهم من الاحتلال العسكري الجاثم على أرضهم، ما كانوا يملكون المعرفة التي يردون بها على التحدي، فهم بعدُ لا يزالون تلاميذ قليلي الخبرة، قليلي العلم مخترقين داخلياً وخارجياً، يقفون إزاء هذا العملاق الذي عملقته صورته المبهرة ولسانه الحاد وفكره المتيقظ.

فإذا انتهت سنوات الدراسة الأربع في مثل هذا الجو وهذا التوجيه، فقد ضمن الخواجات أن فراخهم التي أنتجوها في معمل التفريخ، والتي

ستخرج لتتولى تربية جيل جديد من النشء، ستقوم بالدور المطلوب تلقائيًا بغير حاجة إلى توجيه جديد، فقد انطبعت نفوسها بما يراد طبعها به، وصارت تتقيأ تلقائياً ما سكب في كيانها من السم، لتطعمه فراخاً جديدة صغيرة السن، لا تدرك شيئاً مما حولها، بل تلتقط كل ما يوضع أمامها بلا تمييز ولا قدرة على التمييز.

وإن كان الأمر قد استصعب على الجيل الأول في مثل هذه المدارس، فقد كان أيسر بكثير على المعلمين الانجليز في مدرسة المعلمين فيما بعد، حيث يصعد لهم الشاب بعد أن تشرب هذه الجرعات المسمومة في مراحله الأولى الابتدائية والاعدادية فيأتي إليهم وقد استعد للتلقي والقيام بدوره في المنظومة المحكمة وهكذا دواليك، حلقة محكمة الغلق، وتخطيط خبيث، لا يستهدف جيلاً واحداً بالأفساد فحسب، بل يرنو إلى الأجيال المتعاقبة؛ ليضمن سريان السم في جسدها، لكيلا يخرج جيل يفكر في العودة إلى الاسلام.

ولا تزال حتى وقتنا الحالي تعاني الكليات التي تُعنى بإعداد المعلمين في مصر من المناهج الغربية في التربية،التي يتلقنها المعلم دون النظر إلى طبيعة المجتمع الذي تطبق فيه مثل هذه المناهج، مع إهمال تراثنا التربوي القرآني والنبوي الغزير في التربية والتعليم، في الوقت الذي يُستبعد فيه الطلاب والمعلمون ذوو التوجهات الاسلامية من التدريس،

حيث يحالون إلى الأعمال الإدارية بالإدارات التعليمية، على الرغم من حصول الكثيرين منهم على تقديرات عالية عند التخرج، لكنهم يقصون عن التعامل المباشر بالتلاميذ بحجة تجفيف منابع التطرف داخل المجتمع.

obeikandl.com